عصر سلاطين المماليك [1]

تأليف الأستاذ محمود رزق سليم

أستاذ الأدب العربي بكلية اللغة العربية

بقلم الشيخ محمد رجب البيومي

عرفت صديق الأستاذ الجليل محمود رزق سليم — أول ما عرفته — شاعراً مطبوعاً ، ينظم القصائد العامرة في شتى الأغراض الوطنية والاجتماعية والعاطفية ، ولقد قرأت له منذ أمد بعيد ديوانه الزاهر « وحي الربيع » فأعجبت بديباجته المشرقة وتفكيره المستقيم ، وعاطفته الدافقة الجياشة .

وعرفته — ثانياً — أديباً منصفاً يسوق آراءه الناضجة ، معززة بأدلتها المقنعة ، وبراهينها الدامغة ، وذلك حين قرأت له منذ سنوات ، مصنفة ، القيم عن الأدب الفاطمي وما يليه ، فراقني منه إيجازه البليغ ، وتحليله الدقيق ، ونماذجه الجيدة المختارة من حر القول ، وما ثور البيان مما يدل على ذوق محمود ، وطبع سليم .

وهأنذا أعرفه — للمرة الثالثة — مؤرخا دقيقاً يكتب عن حقبة مظلمة من التاريخ المصري ، فيكشف القناع في براعة ، ويميط اللثام في إقناع ، فلقد قرأت كتابه الأخير « عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي » فخرجت منه بذخيرة ثمينة من الحقائق التاريخية ، كانت محبوءة عن الناس ، مستورة في غوائش حالكة من الإبهام ، حتى جاء المؤلف فاستنطق المخطوطات العتيقة وقرأ المطبوعات العديدة ، وتنقل بين المكاتب العربية باحثاً فاحصاً ، وقد حالفه التوفيق فأصدر موسوعة حافلة من هذا العصر الناهض ، تقع في أربعة أجزاء ضخمة . بلغ القسم الأول منها — وهو الذي نقدمه الآن — سبعمائة صحيفة دافقة بالمعلومات الغزيرة ، في تركيب سلس وترتيب دقيق .

ولقد وفق الأستاذ محمود في إختيار هذا العصر بذاته ، فقد مر به الكاتبون عابسين كالحين ، ومن ألم به منهم إلمامة يسيرة ، قسا عليه قسوة عاتية في حكمه ، فجرده من المحاسن ، ووصمه بما هو بريء منه ، وذلك ما دفع المؤلف إلى كتابة موسوعته الحافلة فأسهب واستطرد ، وناقش وجادل ، وعلل وحلل ، ثم أصدر حكمه النهائي تنطق أدلته بالحق ، وتعترف أسانيده بالصدق .

يقول المؤلف في مقدمة كتابه عن هذا العصر المغبون « ولقد راعني ما أصابه من جفاء ، وهالني ما ناله من صد ، وما رمي به حيفا من أنه عصر ظلمة وتأخر ، وانحطاط وتقليد مع أنه جليل الخطر ، عظيم الأثر ولم تقدم لنا منه الكتب الحديثة إلا صيابة لا تنقع غله ، وعالة لا تروي طالب نشوة ، لذلك أحببت أن أدرسه ، وأطيل الوقوف بمعالمه حتى أصل إلى قرار الحق فيه ، وعولت على الرجوع إلى ما كتبه بنوه الذين عاشوا فيه ، آتيا البيوت من أبوابها ، فهم أصدق حديثاً ، وأقرب مرجعا ، وأجل نجوى ، وأغراني البحث والقراءة حتى وجدتني غارقا في محيط من مؤلفات لا عدد لها ، فيها الغنية لكل أديب ، والمنهج لكل ناهج ، وهي كالبحر لا ينضب معينه ، وكالسيل لا تفيض عيونه ، حينئذ انبهرت عيني ، وماجت الآمال في نفسي موجا ووددت لو استطعت أن أضع موسوعة جامعة في أدب هذا العصر تكون منه للقارىء بمثابة المائدة الشهية التي تضم ألف طعام وطعام .. »

ولقد قصر المؤلف هذا الجزء على التاريخ السياسي للعصر المملوكي ممهداً له بكلمة موجزة عن التاريخ المصري من العهد الفرعوني إلى عهد المماليك ، ولجأ إلى الإسهاب حين تكلم عن أصل السلاطين ، وكيف انتقل إليهم الحكم من الأيوبيين ، ولم يترك من رجال الدولتين (البحرية والبرجية) مملوكا حاكما دون أن يخصه بترجمة وافية مذيلة بالمراجع التي ورد إليها الكاتب ، وقد اهتم كثيراً برجال السلطنة البارزين كالظاهر بيبرس وقلاوون والغوري وطومان باي ، ثم عرج على نواب السلطنة فأفرد لهم أكثر من مائتي صحيفة تنطق بأعمالهم البارزة ، وتسجل على المحسن إحسانه ، وعلى المسيء إساءته في دقة وشمول .

على أني أخالف الأستاذ في ناحية هامة تشيع في مؤلفه ، فقد حرص كل الحرص على أن يترجم لكل من ولي السلطنة أو ناب عنها وكذلك من تحدث عنهم فيما بعده من القضاة والخلفاء وفي هؤلاء جميعاً من لا يستحق أن يكتب عنه سطر واحد ، حيث كان فرداً عاديا ، لم يخلف أثراً ، ولم تحدث في عهده من المفاجآت

(١) الجزء الأول . مجلدان في ٧٠٠ ص

السياسية ما يدعو إلى الحديث عن زمن ولادته ، أو مدة حياته ، أو آونة وفاته ! ! وإنما ولى وعزل وكأنه لم يولد ، فلم إذن نتعب أنفسنا فى تراجم أصنام آدمية ، قذف بها الزمن فى قرار سحيق ! !

ومن المؤرخين من يسهب فى الحديث عن الحكام والرؤساء دون أن يتعرض للحياة الاجتماعية فى العصر الذى يؤرخه ، وكأنه يؤمن بأن تاريخ الشعب يتمثل فى تاريخ ملوكه ، ولكن الأستاذ محمود رزق يفطن إلى خطأ هذا الوهم ، فيخص القسم الثانى من الكتاب بالكلام عن الناحية الشعبية ، فيتعرض للتقاليد والعادات التى شاعت فى المجتمع المصرى ، إذ يصف حفلات الزواج والمآتم والختان ، ويتحدث عن ليالى السمر وأيام الأعياد والمواسم ، وخروج المحمل وعودته ، كما يعتنى اعتناء تاما بأخبار النيل والفيضان فيتحدث عن الجسور والترع والمقاييس ، ويميل إلى وصف الاحتفال بوفائه السنوى ، وإن كان المؤلف لا يجيد — أيضاً — عن استقصائه الشامل فهو يملأ أكثر من عشرين صحيفة بأرقام الصعود والهبوط وتواريخ الزيادة والنقص ، وهذه مغالاة لا تفيد القارىء فى شىء وما دامت هذه الصحائف العديدة تسير على وتيرة واحدة فيكفى أن يسطر الكاتب نموذجا مختصراً منها على سبيل المثال !

ولا أكتم إعجابى بالفصل القيم الذى كتبه المؤلف الفاضل عن القضاء فقد استقاه من أصفى المراجع ، وأبدع فى عرضه إبداعاً عجيباً ، فوصف جلوس السلطان للقضاء ، ونظره فى المظالم والخصومات ، ودلف إلى حقه الشرعى فى مصادرة الأملاك ، وتدخله الرسمى فى أحكام القضاة ، مبيناً بعض ما حدث من مشادة عانيه بين الحاكم والمحكوم ، ثم انتقل إلى القضاء الشرعى ، وكيف اختصى به الشافعية بادىء الأمر ؟ ثم اشترك فيه علماء المذاهب الأربعة على السواء ، وما شعور الشافعية إزاء ذلك ؟ ومن هو صاحب الحق فى العزل والتعيين ؟ وكيف كان يحدث ذلك ؟ وبعد جولة ممتعة فى هذا المضمار ، ختم فصله الجيد بطائفة من التراجم الموجزة لأعلام الفقه والتشريع ، كل ذلك فى سلامة ووضوح .

ولقد كان الأستاذ منصفاً كل الإنصاف حين تعرض إلى محاسن هذا العصر ومساوئه فذكر من الأولى صد الهجمات العادية من التتار والإفرنج ، ورصد الأوقاف وبذل الأموال ، والثانية احتقار السلاطين للشعب وإهمال حقوقه السياسية وفداحة الضرائب وانتشار الجهل والأوبئة والزلازل ، وذلك جميل من باحث متحمس كتب كتابة ليمجد العصر المملوكى فدفعته الحقيقة إلى الاعتراف بالواقع المرير .

وبعد فلقد قرأت هذا الكتاب من ألفه إلى يائه ، فرأيت من الواجب أن ألفت الأنظار إلى مادته الغزيرة ومعلوماته الضافية راجيا أن يعمل مؤلفه الفاضل على إنجاز ما لم يطبع من أجزائه فنحن إليها فى ظمأ شديد . جزاه الله عن صبره الدائب ، وبجهوده الشاق أطيب جزاء وأوفاه .

(الكفر الجديد) محمد رجب البيومى

تاريخ الأدب العربى

للأستاذ الزيات

نفدت الطبعة العاشرة من هذا الكتاب

أما الطبعة التى تباع الآن فى البلاد العربية

فاحترس منها

انها طبعة مزيفة فيها النقص والخطأ والتحريف

والتشويه زيفها أحد الكتبيين فى القاهرة

انتظر الطبعة الحادية عشرة قريبا

طبعة أنيقة صحيحة فيها زيادات كثيرة

ولاسيما فى العصرين العباسى والحديث

سكك حديد وتلغرافات وتليفونات الحكومة المصرية

دليل تليفونات القاهرة طبعة ١٩٤٨

يمكنكم أن تحجزوا الأماكن التى تختارونها للاعلان عن أعمالكم فى دليل تليفونات القاهرة الذى سيصدر فى غضون سنة ١٩٤٨ والإعلان فى الدليل المذكور له مزايا خاصة إذ يتجدد كل يوم طوال مدة سريان الطبعة ويتداوله آلاف المشتركين وبه أماكن خالية تستطيعون استئجارها بأسعار زهيدة .

ولزيادة الايضاح اتصلوا

بقسم النشر والاعلانات

بالادارة العامة بمحطة مصر

مطبعة الرسالة